الصحافة العمالية
خصائصها في كشف التشريعات ومهامها

بقلم الدكتور : عزة عجان

جوهر الصحافة العمالية وشخصيتها الطبقية :

الحديث عن جوهر الصحافة العمالية وخصائصها يدفعنا بالضرورة الى العودة للتاريخ وبالتحديد الى القرن الثامن عشر •

ان الثروات الخيالية التي جنتها بلدان أوروبا الغربية من بلاد ما وراء البحار أدت الى تطور العلاقات الرأسمالية التي مهدت الطريق للدخول في مرحلة الثورات البورجوازية ، هذه الثورات التي دمرت النظام الاقطاعي وأوصلت البورجوازية الى السلطة السياسية •

وفي مجرى العمليات السياسية الاقتصادية والتحولات الثورية برزت الحاجة الى وسيلة سياسية ايديولوجية للتأثير على جماهير الناس فظهرت الصحافة • وبانتصار الثورة البورجوازية بتشكيلتها الاقتصادية الرأسمالية أضحت البورجوازية السلطة الحاكمة وجعلت الصحافة سلاحا سياسيا وايديولوجيا في يدها • لهذا كانت الصحافة بعد ظهورها ــ ولم يكن بالامكان أن تكون غير ذلك ــ مشدودة كليا الى مجال الاستثمار الرأسمالي ووجب عليها أن تؤمن للرأسمالية أكبر الأرباح • وهكذا تحدد جوهر هذه الصحافة كما تحددت وظائفها • فوظيفتها الأولى الهامة تحددت باعتبارها أي الصحافة ، بضاعة وحيدة من نوعها في السوق الرأسمالية •

وفي نفس الوقت وجب على الصحافة البورجوازية أن تحقق وظيفتها الثانية والتي لا تقل أهمية عن الأولى وهي أن تكون المدافع عن أفكار ومصالح الطبقة الحاكمة وأن تكون حارسا للملكية الرأسمالية المقدسة وحاميا للنظام الاجتماعي الرأسمالي وأن تخضع للمبادىء الطبقية السائدة .

وبالتدريج أصبحت الصحافة أداة شديدة الفعالية في تحقيق سلطة البورجوازية التي كانت تتسع باستمرار ، وفي تحقيق مركزها الرئيسي في الاقتصاد وفي مجال الايديولوجية ومختلف مجالات الحياة الأخرى . وبازدياد نمو تأثير وسائل الاتصال الجماهيرية التي تركزت في أيدي عدد قليل وقوي من الرأسماليين أصبحت الجماهير هدفا للتلاعب والتضليل وكان على الصحافة قبل كل شيء أن تعمل على شل مقاومة البروليتاريا التي كانت تزداد وعيا يوما بعد يوم . هذا التناقض أوجدته البورجوازية نفسها . فهي في مرحلة ما قبل السلطة جعلت من الكادحين وقودا لها في ثوراتها ضد الاقطاع ثم حين هيمنت على السلطة جعلت من الكادحين والطبقة العاملة بالذات وقودا للاستغلال والاستثمار .

ان تطوير الصناعة جعل البورجوازية بحاجة الى العامل ذي الكفاءة القادر على التفاعل والتعامل مع التقنية الجديدة مما زاد العامل وعيا وادراكا لقضاياه ومصالحه . وفي مثل هذه الظروف لم يكن بقدرة البورجوازية أن تعيق الى فترة طويلة ظهور الصحافة التي تقف الى جانب الطبقة العاملة في دفاعها عن مصالحها وضد الاستغلال .

كان من البديهي أن تظهر الصحافة في البداية بصورة عفوية . وكانت هذه الصحافة العمالية سرية . وحينما قويت الحركة العمالية المنظمة واتحدت أجبرت الدوائر البورجوازية على الموافقة الرسمية والقانونية باصدار صحافة عمالية رغم كل الظروف .

وهكذا جاءت الصحافة العمالية الثورية نتاجا ضروريا من نتاج التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية الرأسمالية ولكنها في نفس الوقت

تصارع هذه التشكيلة وتنفيها • وفي هذا يكمن أساس القوى المحركة لتطور الصحافة المتناقض في مرحلة الرأسمالية •

قلنا ان الكادحين كانوا وقودا للبورجوازية • ومرجع ذلك يعود الى أن الجماهير الشعبية تلعب دورا كبيرا في الثورة البورجوازية • فبدون دعم هذه الجماهير للثورة لا يمكن أبدا أن تصل الى الحكم وأن تحطم مقاومة الاقطاعية •

ان البورجوازية تظهر في البداية على مسرح التاريخ بأفكار ثورية تجتذب الجماهير اليها لأن في الجماهير دعما لها ، ولكن عندما تستولي على السلطة وتنمو هذه الطبقة فانها تستعمل كل الوسائل من أجل فرض هيمنتها • وهذا ينطبق أيضا على الصحافة • غير أنه في خضم الصراع الطبقي بين البورجوازية وجماهير الكادحين فان سيطرة البورجوازية على الشعب تفلت شيئا فشيئا من أيديها وهـذا ما ينطبق أيضـا على الصحافة التي تفلت من سيطرة البورجوازية السياسية وتقف الى جانب الطبقة العاملة المستغلة فيبرز الصدام ، ويتوسع داخل المجتمع الرأسمالي• وبما أن العمـال يزدادون تنظيمـا عبر مجموعاتهـم داخل المصانع والمؤسسـات ويشكلون أوسـع الفئات فانه ليس من السهـل على البورجوازية أن تقضي على الصحافة الثورية البـروليتارية • تستطيع البورجوازية بالطبع أن تحرم الطبقـة العاملة من الامـكانات المادية الرئيسية مثل الحصول على المطبعة ، والورق والحبر والألوان بالاضافة الى المراقبة والمحاكمات والغـرامات وسجن الصحـافيين بل والتصفية الجسدية وملاحقة القراء ، لكن ذلك كله لن يستطيع اسـكات هذه الصحافة لفترة طويلة • ولم يحدث في أي مكان من العالم ولا في أي وقت أن سكتت هذه الصحافة الى الأبد •

ان الطبقة الحاكمة المستغلة تحسب حساب الصراع الطبقي وحساب المقاومة ولذلك فهي تلزم صحافتها بمحاولة تشتيت الوعي الايديولوجي لجماهير الشغيلة ثم تضليلها والتلاعب بسلوكها لتمنع كل تحرك ثوري ايجابي •

موقف الصحافة العمالية :

ان وعي الجماهير الطبقي وحمايته من الايديولوجيـة والتشريعات البورجوازية هما الوظيفة الأساسية للصحافة العمالية • فوقوف الطبقة العاملة أمام الطبقة البورجوازية وجهـا لوجه يدفع كـلا الطرفين الى العناية بالصحافة • كل طبقة تسعى لأن تكون وظيفة الصحافة مستمرة في التـوعية الجمـاهيرية والدعاية والتنظيم والتـأثير على الرأي العام والمواقف ونشاط الناس لتكون الى جانب مصالح هذه الطبقة أو تلك ولا سيما الى جانب مؤسساتها ومنظماتها السياسية • لذلك فان الصحافة العمالية تكشف باستمرار زيف الايديولوجية البورجوازية التي تكون التشريعات والقوانين احدى عناصرها الأساسية • فالمعروف أن القانون انما هو ارادة الطبقة الحاكمة مرفوعة الى مستوى السلطة • بمعنى آخر أن ارادة الطبقة الحاكمة هي القانون • وبما أن الطبقة الحاكمة البورجوازية هي في نفس الوقت العدو الطبقي للشغيلة والطبقة العاملة فان قوانينها تصاغ أساسا على العداء الطبقي ولصالح مركز البورجوازية الاجتماعي •

ان هذه التناقضات الطبقية تقلق الرأسمالية وتجعل اتجاهها السياسي مضطربا لا تناسق فيه وكثيرا ما تأتي سياستها بالكوارث • فالأزمات الاقتصادية والبطالة والشقاء الجماهيري خصائص أساسية في طبيعـة النظام الرأسمالي الذي يندفع في مثل هذه الظروف نحو الحرب ونحن نشهد في المرحلة الراهنة أزمة من أزمات النظام الرأسمالي الذي يهدد العالم بحرب نووية ، بل أن الرئيس الأمريكي ريغن لم يستبعد في تصريحاته حربا نووية محدودة ؟

ان هذه المآسي التي تحملها الرأسمالية للبشرية انما هي بل ويجب أن تكون سلاحا قويا بيد الصحافة العمالية التي تستطيع بواسطته أن تكشف زيف ادعاء مفكري البورجوازية بأن النظام الرأسـمالي هو النظام الاجتماعي الذي يعتبر المثل الأعلى للبشرية والحياة •

ان الشعوب تكره الحروب وتريد أن تبني حضارتها بسلام بعيدا عن القتل والتدمير ، ولم يكن تاريخ البورجوازية منذ استيلائها على السلطة وحتى يومنا هذا الا تاريخ حروب ضد الشعوب المستضعفة وفيما بينها أيضا • ولا يمكن أبدا أن تكون الحروب المثل الأعلى للبشرية • هذا ما تكشفه الصحافة العمالية بلا كلل ولا تردد •

بعض مهام الصحافة العمالية :

من أبرز خصائص الصحافة العمالية قدرتها الكبيرة على تفسير الظواهر الاجتماعية وتحليل الأحداث الجارية تحليلا واعيا ودقيقا • فهي لا تكتفي بالكشف عن طبيعة العدو الطبقي الداخلي في الوطن المعني وانما تكشف أيضا عن طبيعة العدو الطبقي على المستوى العالمي مجسدا في الامبريالية وحلفائها • فالأحداث التي تجري داخل الوطن المعني لا تنفصل عن حركة الأحداث على المستوى العالمي • والصحافة العمالية هي القادرة على شرح ارتباط هذه الأحداث فيما بينها وعلى كشف القوى المحركة لهذه الأحداث وكشف مصالحها وضرورة اتخاذ موقف واضح معين من هذه الأحداث • ان الصحافة العمالية ترفض موقف (اللاموقف) ترفض الصمت وعدم التعبير عن الرأي تجاه الأحداث لا سيما تلك التي تهدد أمن الوطن وسلامة الشعب •

ومن مهام الصحافة العمالية أيضا التصدي للاعلام المعادي لا سيما الموجه من الدول الامبريالية أو العدو المباشر على الحدود •

هذا بالضبط ما يدفعني الى القول بأن أمام الصحافة العمالية العربية مهمة كبرى في المرحلة الراهنة من أجل التصدي للاعلام الامبريالي الذي يعمل بكل قواه على تشويه الحقيقة العربية والوقوف بانحياز مكشوف لجانب اسرائيل •

لقد تأكد من خلال العدوان الاسرائيلي على جنوب لبنان والمقاومة الفلسطينية أن وسائل الاعلام الأمريكية والدول الغربية كانت تنشر على مستوى واسع معلومات غير صادقة وغير محايدة عن أحداث الشرق الأوسط • وكانت الغاية من نشر هذه المعلومات تحطيم ثقة العرب

بقواهم وزرع الخلاف في الوطن العربي بالاضافة الى وضع كل العراقيل في طريق التقدم الاقتصادي الذي هو أساس الاستقلال السياسي •

لذا فان على الصحافة العمالية العربية في مثل هذه الظروف أن توضح وأن تفضح المشاريع المختلفة للدول الامبريالية فيما يتعلق بالشرق الأوسط وبصورة خاصة مشروع ريغن أحد العناصر الاستراتيجية المنسقة بين الولايات المتحدة واسرائيل والذي لا يحمل أي شيء جديد لصالح العرب ، بل انما هو مشروع مبني على نفس الأسس لاتفاقية كامب ديفيد • ان مشروع ريغن ليس سوى أحد توجهات السياسة الأمريكية لحل مشكلة الشرق الأوسط حلا جزئيا وفق ما أقرته واشنطن وتل أبيب •

وهناك نقطة أخرى • ان المشروع الأمريكي يهدف أيضا الى حل القضية الفلسطينية على حساب الأراضي الاردنية دون عودة الفلسطينيين الى وطنهم • انه نوع خاص من أساليب الاستعمار الجديد الذي تمارسه السياسة الأمريكية في منطقتنا العربية • فهي تصعد توتر الوضع في منطقتنا بواسطة اسرائيل ثم تستعمل هذا التصعيد لخدمة مصالحها الاقتصادية والعسكرية ولخدمة مصالح الصهيونية العالمية الحليفة الطبيعية للامبريالية •

ان الوجود العسكري الأمريكي في لبنان وبناء القواعد العسكرية فوق أراضي بعض البلدان العربية ، بالاضافة الى تجهيز الوحدات العسكرية السريعة التدخل ومناورات الأسطول السادس الأمريكي في المياه العربية ليس سوى دليل على المرحلة الاستعمارية الجديدة التي تسعى لجعل منطقة الشرق الأوسط كلها منطقة نفوذ لحلف شمال الأطلسي وهذا ما لا يمكن أن ترضاه الطبقة العاملة وما لن تسكت عليه صحافتها ووسائل اعلامها الأخرى •